

الفصل الثالث

وكنـت أحسن الثلاث حظاً وأيمنهن طالعاً، فقد قُدِّر لي أن أخدم في بيت مأمور المركز، وكانت خدمتي غريبة أول الأمر ثقيلة على نفسي، ولكني لم ألبث أن أحببتها ووجدت فيها لذة ومناغاة، كُلفْتُ أن أصحب صبية من بنات المأمور كانت تقاربني في السن، ولعلها كانت أكبر مني قليلاً.

كنت أرافقها في اللعب على ألا أَلعب معها، وأرافقها إلى الكُتَّاب على ألا أتعلم معها، وأرافقها حين يأتي المعلم ليلقي عليها الدرس قبل الغروب على ألا أتلقي الدرس معها. كنت لها خادماً، ألحظها من بعيد، وأجيبها إلى ما تريد، ولا أشاركها في شيء مما تعمل. ولكن «خديجة» كانت حلوة النفس، رضية الخلق، مشرقة الوجه دائماً، مبتسمة الثغر دائماً، وديعة النفس، رقيقة الحاشية؛ فلم يطل ما كان بينها وبينني من البعد، وإنما أشركني في لعبها، واختصتني بأحاديثها وأثرتني بأسرارها، ولم تبخل عليّ حتى ببعض ما كانت تمنحها أمها من الحلوى، أو من النقد لتشتري به الحلوى.

وما هي إلا أن تزول بيننا الكلفة ونصبح رفيقتين صديقتين، وسيدة البيت تنكر ذلك أول الأمر، ولكنها تذعن له بعد حين؛ وإذا أنا أختلف مع الصبية إلى الكتاب فأتعلم كما تتعلم، وأتلقى مع الصبية درس المعلم فأستفيد كما تستفيد، وإذا ثياب الصبية تخلع عليّ فيقرب ما بينها وبينني من اختلاف الزي، وأختلس نظرات إليها، ثم أختلس نظرات إلى المرأة، فلا أكاد أحس بينها وبينني فرقاً ولا اختلافاً، لولا أنها كانت تتكلم لغة حلوة عذبة رقيقة هي لغة مصر، وكنـت أتكلم لغة فجّة خشنة غليظة هي لغة أهل الريف من «بني وركان»، وكنـت أقلد في نفسي لغة خديجة فأحسنها وأجيدها، ولكنني حاولت غير مرة أن أجهر بهذا التقليد فرُدعت عن ذلك ردعاً عنيفاً، ثم حاولت غير مرة أن أجهر